وحي الهجرة[١]

إنَّ التاريخَ ليتكلَّم بلغةٍ أوسعَ من ألفاظِه ؛ إذا قرأه من يقرؤه على أنَّه بعضُ نواميس الوجود ، صُوِّرتْ فيها النَّفسُ الإنسانيَّة كيف اعْتَوَرتْ أغراضها[٢] ، وكيف مدَّت في نَسَقِها ، وكيف تغلغلتْ في مسالكِها ، وما تأتَّى لها ، فَجَرَتْ به مَجراها ، وما دفَعها ، فانحدرتْ منه إلى مَقَارِّها ، فهو ليس بكلام تستقبلُه ، تقرأ فيه ، ولكنَّه أحوالٌ من الوجود تعترضُها ، فتغيِّر عليك حسَّك بإلهامِها وأحلامِها ، وتتناولها من ناحيةٍ ، فتتناولُك من الأخرى ؛ فإذا الكلمة من ورائها معنىً ، من ورائه طبيعةٌ ، من ورائها سببٌ ، وحكمةٌ ، وإذا كلُّ حادثة فيها إنسانيتُها ، وإلٰهيَّتُها معاً ، وإذا الوجود في ذهنك كالسَّاعة ترسم لك حدَّ الثَّانية بخَطْرتين ، وحدَّ الدَّقيقة من عددٍ محدودٍ من الثَّواني ، وحدَّ السَّاعة إلى حدِّ اليوم ؛ وإذا البيان في نفسك من كلِّ هذه الحواشي ، وإذا التَّاريخ فيما تقرؤه مُفنَّنٌ في ظاهره وباطنه يَفِيءُ عليك من ألفاظِه ومعانيه بظلالٍ هي صلتُكَ أنت أيُّها الحيُّ الموجود بأسرار ما كان موجوداً من قبل .

كذلك قرأت بالأمس تاريخَ الهجرة النَّبوية في كتاب أبي جعفرٍ الطَّبريِّ ؛ لأكتبَ عنه هذه الكلمة ، فلم أكن ـ علم الله ـ في كتابٍ ، ولا في حكايةٍ ، بل في عالمٍ انبثق في نفسي مخلوقاً تامّاً بأهله ، وحوادث أهله ، وأسرار أهلِه جميعاً ؛ كما يرى المحبُّ حبيبَه : لا يكون الجميل في محلٍّ إلا امتلأ مكانه بعاشقه ، فهو مكانٌ من النَّفس ، لا من الدُّنيا وحدَها ، وفيه الحياة كما هي في الوجود بمظهر المادَّة ، وكما هي في الحبِّ بمظهر الرُّوح .

وتلك حالةٌ من القراءة بالرُّوح ، والكتابة بالرُّوح ، متى أنت سموتَ إليها ؛ رأيتَ فيها غيرَ المعنى يُخرِجُ معنى ، ومِن لا شيءَ تُخلَق أشياء ، لأنَّك منها اتَّصلت بأسرار نفسك ، ومن نفسك اتَّصلتَ بأَسرارٍ فوقها ؛ فيُصبِحُ التَّاريخُ معك فنَّ الوجود الإنسانيِّ على الوجه الذي أَفْضَتْ به الحكمة إلى الحياة ؛ لتستمرَّ بالنَّفس

(١) أولى مقالاته في الرسالة ، أنشأها للعدد السَّنوي الخاص بالهجرة . (س) .

(٢) « اعتورت أغراضها » : تداولتها .

الإنسانيَّة ، لا فنَّ علم النَّاس على الوجه الذي أفضتْ به الحوادث ممَّا بين الحياة والموت .

* * *

نشأ النبيُّ ﷺ في مكَّة ، واستُنْبئ على رأس الأربعين من سنِّه ، وغَبَر[1] ثلاثَ عشْرةَ سنةً يدعو إلى الله قبل أن يهاجرَ إلى المدينة ؛ فلم يكن في الإسلام أولَ بَدْأتِه إلا رجلٌ ، وامرأةٌ ، وغلامٌ : أمَّا الرَّجل ؛ فهو هو ﷺ ، وأمَّا المرأةُ ؛ فزوجُه خديجة ، وأمَّا الغلام فعليٌّ ابن عمه أبي طالب .

ثُمَّ كان أوَّل النُّموِّ في الإسلام بِحُرٍّ ، وعبدٍ : أمَّا الحرُّ ؛ فأبو بكر ، وأمَّا العبد ؛ فبِلال ، ثُمَّ اتسقَ النُّموُّ قليلاً ببُطء الهموم في سيرها ، وصبر الحرِّ في تجلده ؛ وكأنَّ التَّاريخَ واقفٌ لا يتزحزح ، ضيِّقٌ لا يتَّسع ، جامدٌ لا ينمو ؛ وكأنَّ النَّبيَّ ﷺ أخو الشَّمس : يطلُع كلاهما وحدَه كلَّ يوم . حتَّى إذا كانت الهجرة مِنْ بَعدُ ، فانتقل الرسولُ إلى المدينة ، بدأت الدُّنيا تَتَقَلْقَل[2] كأنَّما مرَّ بقدمه على مركزها ، فحرَّكها ؛ وكانت خطواتُه في هجرته تَخطُّ في الأرض ، ومعانيها تخطُّ في التاريخ ؛ وكانت المسافة بين مكَّةَ ، والمدينة ، ومعناها بين المشرق والمغرب .

لقد كان في مكَّةَ يَعْرِضُ الإسلامَ على العرب ، كما يُعْرَض الذَّهبُ على المتوحِّشين : يَرونه بَريقاً ، وشُعاعاً ، ثُمَّ لا قيمةَ له ، وما بهم حاجةٌ إليه ، وهو حاجة بني آدم إلا المتوحِّشين ، وكانوا في المحادَّة ، والمخالفة الحمقاء ، والبلوغ بدعوته مبلغَ الأوهام والأساطير ـ كما يكون المريضُ بذات صدره مع الذي يدعوه في ليلةٍ قارَّةٍ إلى مداواة جسمِه بأشعة الكواكب ؛ وكانت مكةُ هذه صخراً جغرافيّاً يتحطَّم ، ولا يلين ، وكأنَّ الشَّيطانَ نفسَه وضع هذا الصَّخر في مجرى الزَّمن ؛ ليصدَّ به التَّاريخَ الإسلاميَّ عن الدُّنيا ، وأهلها .

وأوذيَ رسول الله ﷺ ، وكُذِّب ، وأُهين ، ورَجَفَ به الوادي يخطو فيه على زَلازلَ تتقلَّب ، ونابذَه قومُه وتَذَامَروا فيه[3] ، وحضَّ بعضُهم بعضاً عليه ،

---

(١) « غبر » : بقي .

(٢) « تتقلقل » : تتحرك .

(٣) « تذامروا فيه » : حضَّ بعضُهم بعضاً على قتاله .

وانْصَفَقَ[١] عنه عامَّةُ النَّاس وتركوه إلا مَنْ حَفِظَ اللهُ منهم ؛ فأصيب كبيراً باليُتْم من قومه ، كما أصيب صغيراً باليُتْم من أبويه .

وكان لا يسمع بقادمٍ يقدَمُ من العرب له اسمٌ ، وشرفٌ ، إلا تصدَّى له ، فدعاه إلى الله ، وعرض نفسَه عليه ؛ ومع ذلك بقيت الدَّعوةُ تلوح ، وتختفي ، كما يَشُقُّ البرقُ من سحابةٍ على السَّماء : ليس إلا أن يُرى ، ثُمَّ لا شيء بعد أن يُرى !

* * *

فهذا تاريخُ ما قبل الهجرة في جملة معناه ، غيرَ أنِّي لم أقرأه تاريخاً ، بل قرأتُ فيه فصلاً رائعاً من حكمةٍ إلٰهيةٍ ، وضعه الله كالمقدَّمة لتاريخ الإسلام في الأرض ؛ مقدِّمةٌ من الحوادث والأيام تحيا ، وتمرُّ في نَسَق الرِّواية الإلهيَّة المنطوية على رموزها ، وأسرارها ، وتظهر فيها رحمةُ الله تعملُ بقسوةٍ ، وحكمةُ الله تتجلَّى في غُموضٍ ؛ فلو أنت حقَّقت النَّظرَ ؛ لرأيتَ تاريخَ الإسلام يتألَّه في هذه الحِقْبة ، بحيث لا تقرؤه النَّفسُ المؤمنةُ إلا خاشعةً ، كأنَّها تُصَلِّي ، ولا تتدبَّره إلا خاضعةً ، كأنَّها تتعبَّد .

بدأ الإسلام في رجلٍ ، وامرأةٍ ، وغلامٍ ، ثُمَّ زاد حرّاً ، وعبداً ؛ أليست هذه الخمسُ هي كلُّ أطوار البشرية في وجودها ، مخلوقةً في الإنسانية ، والطَّبيعة ، ومصنوعةً في السِّياسة ، والاجتماع ؟ فهاهنا مطلعُ القصيدة ، وأوَّلُ الرَّمز في شعر التَّاريخ .

ولَبِثَ النَّبيُّ ﷺ ثلاثَ عشرةَ سنةً لا يَبْغيه قومُه إلا شرّاً ، على أنَّه دائبٌ ، يطلب ، ثُمَّ لا يجد ، ويَعْرِضُ ، ثُمَّ لا يُقبَل منه ، ويُخْفِق ، ثُمَّ لا يَعتريه اليأس ، ويَجْهَدُ ، ثُمَّ لا يتخوَّنُه المَلَل ، ويستمرُّ ماضياً لا يتحرَّف ، ومعتزماً لا يتحوَّل ؛ أليست هذه هي أسمى معاني التَّربية الإنسانيَّة أظهرَها اللهُ كلَّها في نبيِّه ، فَعمِلَ بها ، وثبت عليها ، وكانت ثلاثَ عشرَةَ سنةً في هذا المعنى كعمر طفلٍ وُلِدَ ، ونشأ ، وأُحكم تهذيبُه بالحوادث ، حتى تسلَّمَتْه الرُّجولةُ الكاملة بمعانيها من الطفولة الكاملة بوسائلها ؟

أفليس هذا فصلاً فلسفيّاً دقيقاً يعلِّم المسلمين كيف يجب أن ينشأ المسلم :

(١) « انصفق » : انصرف ، وارتدَّ ، ورجع .

غنَاه في قلبه ، وقوّته في إيمانه ، وموضعه في الحياة موضعُ النّافع قبل المنتفع ، والمصلح قبل المقلِّد ؛ وفي نفسه من قوّة الحياة ما يموتُ به في هذه النّفس أكثرُ ما في الأرض والنّاس من شهواتٍ ، ومطامع ؟

ثُمَّ أليست تلك العواملُ الأخلاقيةُ هي هي التي ألقيتْ في منبع التّاريخ الإسلاميِّ ليعُبَّ[١] منها تيّارُه ؛ فتدفعُه في مجراه بين الأمم ، وتجعلُ من أخصِّ الخصائص الإسلاميّة ـ في هذه الدنيا ـ الثباتَ على الخُطْوة المتقدِّمة ؛ وإن لم تتقدَّم ، وعلى الحقِّ ؛ وإن لم يتحقَّق ؛ والتبرُّؤَ من الأثرة ؛ وإن شَحَّتْ عليها النّفس ، واحتقارَ الضَّعف ؛ وإن حَكَم ، وتسلَّط ، ومقاومةَ الباطل ؛ وإن ساد ، وغلبَ ، وحمْلَ النّاس على مَحْض الخيرِ وإن رَدُّوا بالشَّرِّ ، والعملَ للعمل ؛ وإن لم يأت بشيءٍ ، والواجبَ للواجب ؛ وإن لم يكن فيه كبيرُ فائدةٍ ، وبقاءَ الرَّجل رجلاً ؛ وإن حطَّمه كلُّ ما حوله ؟

ثم هي هي البُرهاناتُ القائمة للدَّهر قيامَ المنارة في السَّاحل ـ على نبوَّة محمَّدٍ ﷺ : تثبت ببرهان الفلسفة ، وعلوم النَّفس : أنَّه رُوحٌ ، وغاياتُها المحتومة بالقدَر ، لا جسمٌ ووسائلُه المتغلِّبةُ بالطَّبيعة ؛ ولو كان رجلاً ابْتَعَثَتْه نفسُه ، لتَمحَّلَ الحيلَ لسياسته ، ولأحْدَثَ طمعاً في كلِّ مَطْمع ، ولركَدَ مع الحوادث وهَبَّ ، ولما استمرَّ طوالَ هذه المدَّة لا يتَّجه وهو فردٌ إلا اتجاهَ الإنسانيَّة كلِّها ، كأنَّما هو هي .

ولو هو كان رجلَ المُلك ، أو رجلَ السِّياسة ؛ لاستقام ، والْتَوَى ، ولأدرك ما يبتغي في سَنوات قليلةٍ ، ولأوجد الحوادثَ يتعلَّق عليها ، ولما أفْلتَ ما كان موجوداً منه يتعلَّق به ، ولما انتزع نفسَه من محلِّه في قومه ، وكان واسطةً فيهم ، ولا ترك عوامل الزَّمن تُبعِدهُ ، وهي كان تُدنيه .

قالوا : إنَّ عمَّه أبا طالب بعث إليه حين كلَّمتْه قُريش ، فقال له : يا بن أخي ، إنَّ قومَكَ قد جاؤوني ، فقالوا لي : كذا ، وكذا ، فأبْقِ عليَّ ، وعلى نفسك ، ولا تحمِّلْني من الأمر ما لا أطيق . فظنَّ رسولُ الله ﷺ : أنَّه قد بدا لعمِّه فيه بَدَاء[٢] ، وأنَّه خَاذلُه ، ومُسْلمُه ، وأنَّه قد ضَعُفَ عن نُصرته ، والقيام معه ، فقال :

---

(١) « يعب » : عبَّ الظمآنُ الماء : شربه بلا تنفُّسٍ ، ولا مصٍّ .

(٢) أي : نشأ له رأيٌ جديدٌ فيه ، وهذا كما يقولون : رجع عن رأيه . (ع) .

يا عمَّاه ! لو وضعوا الشَّمسَ في يميني ، والقمرَ في يساري على أن أتركَ هذا الأمرَ حتَّى يُظهِرَه اللهُ ، أو أهلِكَ فيه ؛ ما تركته . ثُمَّ استعْبَرَ ﷺ فبكى !

يا دموعَ النبوة ! لقد أثْبَتِّ : أنَّ النَّفسَ العظيمةَ لن تتعزَّى عن شيءٍ منها بشيءٍ من غيرها كائناً ما كان ، لا من ذهبِ الأرض وفضَّتِها ، ولا من ذهب السَّماء ، وفضَّتِها ؛ إذا وُضِعَتِ الشَّمسُ في يدٍ ، والقمرُ في الأخرى .

وكلُّ حوادث المدَّة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليلَ ذلك الزَّمنِ على أنَّه زمنُ نبيٍّ ، لا زمنُ مَلِكٍ ، أو سياسيٍّ ، أو زعيمٍ ؛ ودليل الحقيقة على : أنَّ هذا اليقينَ الثابتَ ليس يقينَ الإنسان الاجتماعيِّ من جهة قوته ، بل يقينَ الإنسان الإلهيِّ من جهة قلبه ؛ ودليلَ الحكمة على أنَّ هذا الدِّينَ ليس من العقائد الموضوعة التي تنشرها عَدْوى النَّفس للنَّفس ؛ فها هو ذا لا يبلغ أهلُه في ثلاثَ عشرةَ سنةً أكثرَ مما تبلغ أسرةٌ تتوالد في هذه الحِقْبة ؛ ودليلَ الإنسانية على أنَّه وحْي الله بإيجاد الإخاء العالميِّ ، والوحدة الإنسانيَّة . أفلم يكن خروجُه عن موطنه هو تحقُّقَه في العالم ؟

ثلاثَ عشرةَ سنة ، كانت ثلاثة عَشَر دليلاً تثبت : أنَّ النبي ﷺ ليس رجلَ مُلك ، ولا سياسة ، ولا زَعامة ؛ ولو كان واحداً من هؤلاء ؛ لأدرك في قليلٍ . وليس مبتدعَ شريعةٍ من نفسه ، وإلا ؛ لما غَبَر في قومه ، وكأنَّه لم يجدْهم ، وهم حوله ؛ وليس صاحبَ فكرةٍ تعملُ أساليبُ النَّفس في انتشارها ، ولو كانَه ؛ لحملهم على مَخْضها ، وممزوجها ؛ وليس رجلاً متعلِّقاً بالمصادفات الاجتماعية ، ولو هو كان ؛ لجعل إيمانَ يومٍ كُفْرَ يومٍ ؛ وليس مُصْلِحَ عشيرة يهذِّب منها على قَدْر ما تقبل منه سياسةً ، ومخادعةً ، ولا رجلَ وطنِه تكون غايتُه أن يشمَخَ في أرضه شُموخَ جبل فيها ، دون أن يحاولَ ما بلغ إليه من إطلاله على الدُّنيا إطلالَ السَّماء على الأرض ، ولا رجلَ حاضره ؛ إذ كان واثقاً دائماً : أنَّ معه الغدَ ، وآتِيَه ، وإن أدبر عنه اليومُ ، وذاهبُه ؛ ولا رجلَ طبيعتِه البشرية يلتمسُ لها ما يلتمس الجائع لبطنه ، لا رجلَ شخصيته يستهوي بها ، ويسحر ، ولا رجلَ بطشِه يغلب به ، ويتسلَّط ، ولا رجلَ الأرض في الأرض ، ولكن رجلَ السَّماء في الأرض .

هذه هي حكمة الله في تدبيره لنبيِّه قبل الهجرة : قبض عنه أطرافَ الزَّمن ، وحصره من ثلاثَ عشرةَ سنة في مثل سنةٍ واحدةٍ ، لا تَصدرُ به الأمور مَصَادرَها ؛

كي تُثبتَ : أنَّها لا تَصدر به ، ولا تستحقُّ به الحقيقة لتدلَّ على أنَّها ليست من قوته ، وعمله .

وكان ﷺ على ذلك ـ وهو في حدود نفسِه ، وضيق مكانه ـ يتَّسع في الزَّمن من حيث لا يَرَى ذلك أحدٌ ، ولا يعلمه ، وكأنَّما كانت شمس اليوم الذي سينتصر فيه ـ قبل أن تُشرقَ على الدُّنيا بثلاثَ عشرةَ سنة ـ مشرقةً في قلبه ﷺ .

والفصل من السَّنة لا يقدِّمه النَّاس ، ولا يؤخِّرونه ؛ لأنَّه من سَيْر الكون كلِّه ؛ والسَّحابة لا يُشْعِلون برقَها بالمصابيح ، ومع النَّبي من مثل ذلك برهانُ الله على رسالته ، إلى أن نزل قولُه تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال : ٣٩] فحلَّ الفصل ، وانطلقت الصَّاعقة ، وكانت الهجرة .

تلك هي المقدَّمة الإلٰهية للتَّاريخ ، وكان طبيعيّاً أن يطَّردَ التَّاريخ بعدها ، حتى قال الرَّشيد للسَّحابة وقد مرَّت به : **أمطري حيث شئت ؛ فسيأتيني خَراجُك !**

* * *